موضوعات الشعر في كتاب احكام صنعة الكلام لابي القاسم الكلاعي دراسة تحليلية

أ.م. د. دنيا نعمة عبد الحسن
جامعة الكوفة ـ كلية التربية للبنات ـ قسم اللغة العربية
Dunya almurshidi@uokufa.edu.iq

Poetic topic in the Book Ahkam Sanat al-Kalam by Abi al Qasim al –Kilai, who died in 542 AH, an analytical study

Assis. Prof. Dr. Dunya Nehme Abdel- Hassan
University of Kufa - College of Education for Girls - Department of Arabic Language

الملخّص:

كتاب احكام صنعة الكلام من الكتب النثرية المهمة , لمؤلفه محمد بن عبد الغفور الكلاعي الاشبيلي الاندلسي , من اعلام القرن السادس الهجري , الولادة والوفاة مجهولان , لم تذكر كتب التراجم ذلك, وهو كتاب ممتع ومفيد لدارس الأدب العربي , يضم الكتاب مجموعة من الابيات الشعرية يستشهد بها المؤلف , وخطة البحث قائمة على انتقاء الابيات الشعرية ثم دراستها دراسة تحليلية وتوزيعها على المديح , و الرثاء , و الوصف ٠ ثم خاتمة اوجزت فيها خلاصة البحث وفهرست المصادر والمراجع والهوامش ٠ وابرز الكتب المعتمدة في البحث هي كتاب احكام صنعة الكلام للكلاعي , والعصر العباسي الاول د٠ شوقي ضيف فضلاً عن كتب الأدب والنقد والبلاغة.

الكلمات المفتاحية : احكام , صنعة , الكلام , للكلاعي , دراسة, تحليلية.

Abstract:

The book (Alhkam Sanat al Kalam) is considered one of the important books in Arabic, Literature by the author M ahammed Abd al – Ghaffour al- A shbili. It includes poetic excerpts from all the arts of poetry , includes parise, Iamentation and description .the study included an introduction , an introduction , index of sources , references , margins, and the main source the book (Ahkam Sanat al Kalam) and book of aLiterature , critism and rhetoric .Iask God Almighty to grant me success in writing this research , and God grant me success.

Key word: Alhkam, Sanat, al-Kalam, al Kilai, analytical study.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الأنبياء والمرسلين ابي القاسم محمد وأله الطيبين الطاهرين ٠

وبعد٠

يعدُّ الكلاعي واحداً من الأدباء الأندلسيين الذين كان لهم دور بارز في التأليف والتصنيف ,ورفد المكتبة العربية بتراث قيم تعاقبت الأجيال على الاحتفاظ به والافادة منه , وهو من رواد الاساليب الرفيعة في الكتابة لكن ما كتبه الكلاعي لم يحظَ بالدراسة والبحث من قبل الباحثين ٠ وقد حفزني ذلك الى اختياره موضوعاً لبحثي المؤسوم ب (موضوعات الشعر في كتاب احكام صنعة الكلام لابي القاسم الكلاعي دراسة تحليلية) وقد أقتضى منهج الدراسة أن يقع في مقدمة ومدخل يتحدث عن حياته وثقافته وسلطت الضوء على أسمه , لقبه , كنيته ثم ولادته ونشأته وشيوخه ومؤلفاته وأخيراً وفاته وتحدثت عن أهمية الكتاب ٠ والدراسات والابحاث التي كتبت عن الكتاب وجاء المبحث الأول تحدثت عن المديح ٠ والمبحث الثاني درست فيه الرثاء ٠ والمبحث الثالث عرضت

للوصف ٠ وأختتم البحث بخاتمة أوجزت فيها خلاصة البحث وابرز النتائج التي توصلت اليها اما المصادر الأساسية التي أستقيت منها مادة الدراسة فكانت كتاب احكام صنعة الكلام للكلاعي , فضلاً عن كتب الأدب والبلاغة والنقد , وأرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في كتابة بحثي هذا.

ومن الله التوفيق

المدخل : حياته وثقافته

١- اسمه , كنيته , لقبه :

((محمد بن عبد الغفور , يكنى أبا قاسم , لقب ب الكلاعي)) (١) الوزير الأندلسي الأشبيلي , صاحب الكتب الهامة التي بقيت رغم عوادي الزمن التي اجتاحت الآثار الأندلسية ٠

٢- ولادته ونشأته:

((نشأ الكلاعي –اذن – في بيت من بيوت العلم والثقافة والحسب والرياسة , فأكتسب من مخالطة الوزراء وكبار الكتَّاب والأدباء , وأخذ عن شيوخ عصره وائمة زمانه ٠ فاذا أضفنا الى ذلك ذكاء لماحاً)) (٢) وتبين لنا وجه نبوغه المبكر حتى قال عنه ابن خاقان ((شبيبة الحقته بالكهول)) (٣) ينتمي الأديب من أسر العلم والأدب والوزارة في اشبيلية بالأندلس ٠ فجده هو ذو الوزارتين صاحب المعتمد بن عباد الأشبيلي , صحبه قبل امارته , وتوفي في عنفوان شبابه وأبوه هو الوزير الكاتب ابو محمد بن عبد الغفور , فمولد الأديب ووفاته مجهولان وأنه من اعلام القرن السادس الهجري ٠لكن ابن بسام يقول : ((والده حياً سنة ٥٣١هـ , وكان حينها كاتباً لابن تاشفين , اما الأديب كان من طبقة ابن بسام)) (٤)

شيوخه :

ذكر صاحب كتاب التكملة بعض شيوخه قال : ((أخذ الآداب عن أبيه ابي محمد , وأخذ العربية عن ابي عبد الله بن أبي العافية , وتفقه بأبي القاسم الزنجاني , وذكر في كتاب احكام صنعة الكلام شيخه ابا عبد الله بن أبي العافية , وأخر سماه الحافظ بن اسماعيل)) (٥)

وكان اهتمامه موزعاً بين غرضيين هما : الشريعة والأدب فأبن الأبار يقول : ((الآداب كانت بضاعته)) (٦) فهو يرجح جانب الأديب منه على جانب الفقيه ٠ ويقول المؤلف في ختام كتابه ((هذه – اعزك الله – بضاعة استخرجتها يد النصيحة من صدف الفكر , وفتقتها يمين الأنفة من كمام الذكر , وكتبها قلم الاستعجال في صحيفة الارتجال , اذ الخاطر متقسم بين تفقه في أدب , وتفقه في شرع محافظة على فرع , وفي هذا عذر ان وقع تقصير , ولا ينفرد بالكمال الا السميع العليم)) (٧) وهو يبدو في كتابه مثقفاً واسع الاطلاع , مشاركاً في فنون مختلفة من الأدب والشريعة , ومطلعاً على تراث عصره الفكري والأدبي٠

٤-مؤلفاته :

*(احكام صنعة الكلام) فقال عنه الكتَّاب : ((وله رسالة احكام صنعة الكلام في سفر)) (٨)

*((الانتصار لأبي الطيب)) وقال عنه : ((وألف كتاب الأنتصار)) (٩)
* (الساجعة والغربيب) ((ألفه ضد ابي العلاء المعري في كتابه الصاهل والشاحج ٠))(١٠)
*(السجع السلطاني) وهو ((مثال السجع السلطاني لأبي العلاء المعري لكن لم يذكره احد ممن ترجم له))٠ (١١)
* (خطبة الاصلاح) ((ولم يذكره احد ممن ترجم له٠)) (١٢)
والكتب الثلاثة الأخيرة ألفها الكلاعي لمعارضة أبي العلاء المعري ولاثبات قدرته على مضاهاته ومجاراته ٠كما ينتبه المؤلف الى ان الكتابة والشعر شيئان متنافران ((لتنافر طبائع اهلهما , وانه يصعب الجمع بين الفنين بمقدرة واحدة وبيان واحد , ويوضح في اوائل كتابه انه ما ترك الشعر عن ضعف , فقد كان مولعاً بترصيعه وتصنيعه حتى وصل به الى أعلى المراتب , ولكنه نزع منزعاً كريماً من علم
الديانة , واقتصر من قسمي البلاغة على قسم الكتابة ٠ وانه ما ترك عجزاً عنه , ولا اتخذ النثر بدلاً منه)) ٠(١٣)
واثنى صاحب المطمح على شعره فقال : وله شعر بديع السرد واورد له مقطوعات منها :

تركت التصابى للصواب وأهله وبيض الطلى للبيض , والسمر للسمر
مدامي مدامي والكؤوس محاربي وندماني الاقلام , والعين كالسفـــــر(١٤)

وملخص الكلام انه يرجح النثر على الشعر لاعتبارات دينية بالدرجة الأولى , وانه اهتم بالنثر لعدم اهتمام الكتَّاب والمؤلفين بذلك , والتفافهم الى الشعر وفنونه ٠

٥-وفاته :

لا تسعفنا كتب التراجم التي تحدثت عن الأديب بأخبار عن وفاته , وفي احكام صنعة الكلام خبر يدل على انه ادرك وفاة ابي الحسن بن بسام فقد ذكره الثعالبي (١٥) وينقل صاحب المغرب عن سمط الجمان في ترجمة الكلاعي : ((انه اعتبط شاباً)) (١٦) فذا أضفنا الى ذلك ان ((الأديب كان من طبقة ابن بسام المتوفى سنة ٥٤٢هـ وقيل انه توفى سنة ٥٤٢هـ)) (١٧)٠

٦-اهمية الكتاب :

تظهر اهمية هذا المصنف في أربعة أمور :-
اولاً: في أنه يحتوي على آراء مختلفة في كثير من امور النقد والبلاغة ٠وبعض هذه الآراء خاص بالأديب , ومن استنباطه واختراعه ٠
ثانياً: في الكتاب اشارات الى ما يعضد فكرة شعور الأندلسيين بتفوقهم وتقدمهم ثالثاً: وفيه اشارات على عدد من الكتب المشرقية التي كانت متداولة في الاندلس رابعاً: يتبين القارئ لهذا الكتاب بوضوح أثر المعري وظهور أسلوبه من النثر الفني
, ويتبين ايضاً ظهور طريقة المتنبي في الشعر على غيرهما من المشارقة في
أساليب الأندلسيين وطرائقهم٠ والكتاب في مقدمة وبابين ٠يتعلق الباب الأول : بالكتابة وادواتها وطرق ادائها , وما يتعلق بتعليلاتها , وهو عدة فصول منها الخط والاستفتاح والامر والدعاء وغيرهم واما الباب الثاني يتحدث عن انواع الكلام

والسجع وغيرهم والكتاب محقق من قبل محمد رضوان الداية ويعمل المحقق على مقارنة النصوص في هذا الكتاب بنصوص من كتب أخرى , اكمل النقص في العبارات المنقولة من مصادر , قوم الأبيات الشعرية (وهي محور دراستنا) رجع الى المصادر في توثيق الاحاديث وبعض النصوص وضبطها وهذه امور تنفع القارئ في معرفة النصوص من غير غموض ٠ولا بد من الاشارة الى أن شيخ المعرة نظر من خلال شعره الى أمر المجتمع وقد أقض مضجعه ٠ كما أقض مضجع المتنبي سابقاً تدهور الاوضاع السياسية , والمتنبي بلغ مقصده لكن المعري اقعدته العلة عن السير في السبيل الذي طرقه المتنبي لبلوغ امانيه٠

٧- الدراسات والابحاث التي كتبت عن الكتاب :

- أبو القاسم الكلاعي وجهوده الادبية والنقدية في كتاب أحكام صنعة الكلام٠
- الخطاب النثري عند ابن عبد الغفور الكلاعي الأندلسي في كتاب أحكام صنعة الكلام ٠
- أفعال الكلام في أحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي .
- النقد الاجناسي في كتاب أحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي ت ٥٤٢هـ .
- بلاغة النثر وضروب الكلام في التراث العربي – قراءة في كتاب أحكام صنعة الكلام الكلاعي .
- مصطلح السجع عند أبي القاسم الكلاعي الاشبيلي الأندلسي بين الاتباع والابتداع .
- الدرس البلاغي عند أبي القاسم الكلاعي في كتابه أحكام صنعة الكلام
- المقام التخاطبي في كتاب أحكام صنعة الكلام لأبي القاسم الكلاعي .
- نظرة نقدية في قوانين الكتابة وأدابها عن الكلاعي من كتابه أحكام صنعة الكلام .

المبحث الأول : المديح

ابواب الشعر العربي كثيرة منها المدح ويعد من اهم الأغراض التي قال فيها شعراء الجاهلية شعرهم ؛ نشأ في البداية أظهاراً للصفات العربية مثل الكرم , والشجاعة , والعفة , والأباء . ثم أضيفت لها صفات في العصر الاسلامي مثل التقوى , والورع , والتواضع وظلت حتى العهد الأموي وعندما جاء العصر العباسي كثر الشعر والشعراء وأخذوا يتفننون في عظمة الخلفاء العباسيين .

ذلك ان الاعجاب بالممدوح والرغبة في العطاء تدفعان الشاعر الى اتقان هذا الفن من القول ؛ فيسعى الشاعر الى قول الشعر الجيد الذي يتضمن الشكر والثناء , والإشادة بالكرم والشجاعة وغيرها من الصفات المعنوية التي تتوفر

في الممدوح وورد في كتاب احكام صنعة الكلام هذا الفن الشعري بكثرة يستشهد به المؤلف٠

يقول في مدح سيف الدولة الحمداني :

واحسن في حفظ النبي وآله ورعي رسوم الدين توفير شكره

فما يدرك المُداح أدنى حقوقه بأعراض منظوم الكلام ونثـــره (١٨)

فهو يرى في البيتين الشجاعة أقل ادواته , والبلاغة اصغر صفاته فالأمال موقوفة عليه , والثناء اجمع مصروف اليه فهو يفضل مناقب سيف الدولة في حفظ آل النبي (ص). ويرى الكثير من

النقاد قد أجاد المتنبي من خلال المديح ووقف الدارسين فأثنوا عليه . ثم يذكر ثلاثة ابيات لسيف الدولة يفضل فيها بطولته وشجاعته بقوله :

كأنما ادخر الرحمن معظمه دون الملوك لسيف الدولة البطل
رآه أكرمهم في الخير ان ذُكروا وصفاً وأفضلهم في القول والعملِ
فهزه وظباً الأسياف مغمده واستله غير منسوب الى الكـــللِ (١٩)

فهو اشرف من ان يحد بالصفات , أو يعدُّ بأفصح العبارات , بعد هذا يفخر بسيف الدولة وشجاعته , فهو الذي ترك الشاعر يخوض معركة الكرامة وحده ضد اولئك الحساد في بلاطه . وبعد ذكر صفات سيف الدولة الحمداني يذكر الكلاعي ابياتاً لجده قالها في مدح صديقه المعتمد , منها :

ظفرت بالأعداء يا ظافر ونلت مجداً نوره بـــاهر
فمنك للباغي وللمبتـــــغي عضبٌ جراز , وندى غامر (٢٠)

فراجعه المعتمد بأبيات منها :

لي همة تدرك مطلوبها ما فاتها ساعٍ ولا طائر
يفديك بالنفس فتى وُدُّه فيك مدى أيامه ناضر (٢١)

والأبيات من بنائه الضخم , وهي متينة السبك , قوية الحبك , وانظر في ابيات جده كيف صور تصويراً بديعاً شجاعته وهو يتغنى بالانتصار تغنياً بديعاً واستبساله في القتال والظفر بالأعداء ٠وقد دفعه هذا الأعجاب الى الغلو والمبالغة , فيجعله أعظم ملوك الأرض نباهة , وشجاعة , ورجاحة .

ومن شعر الى امير المسلمين في غزوة غزاها :

سر حيث شئت يحلّه النوار وأراد فيك مرادك المقدارُ
واذا ارتحلت فشيعتك سلامة وغمامة , لا ديمةُ مدرارُ (٢٢)

تغنى الشاعر ببسالة الأبطال بمديحهم وتصوير انتصاراتهم وكانه يتحدث عن ملاحم كبرى جسم فيها بطولتهم تجسيماً ٠ وعلى الرغم مما اصاب جسده في المعركة فانك تسكب في نفوس قومك البهجة فهو دائماً يلائم في ابياته بين مدحه وممدوحه ٠

ومن شعر في المدح قال الشاعر :

اذا اقسم الأبطال يوماً بسيفهم مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتَّاب مجداً ورفعة الدهر أن الله أقسم بالقلم (٢٣)

فعلاً في البيتين يلائم بين مدحه وممدوحه فهو عندما يمدح الأبطال والفرسان ينوه بالسيف والمعركة وكيف يحقق الرفعة وعندما يتحدث عن الكاتب وادواته جلَّى في وصفه لقلمه حتى يقول : القلم أحد اللسانين فهو ترجمانه ولسانه وسنانه ٠وقد استمد في وصفه هذا من قانون الأضداد ٠ونحسُّ في مديحه بعض الظواهر النادرة التي تنعقد بين رجال الأدب والشعر ٠

ان الشعراء المّداحين يبالغون –في الغالب – في كرم الممدوح وعطائه كما قال الشاعر في الوزير المهلبي :

ان الكرام اذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن (٢٤)

بعد ان ذكره بالصحبة , فهزته اريحية الكرم للحنين اليه , ورعاية حق الصحبة فيه , فأمر له بسبع مئة درهم , وقلده عملاً يرتفق فيه ويرتزق منه ٠

وبعض الشعراء يجعلون الممدوح يده كالغيث أو البحر مثل قول الشاعر في الوزير نظام الملك الحسن بن علي :

ويخجل من راحتيه الغمام اذا درّ نائلة الصيب
اتى في السماحة ما لم يدغ لأهل الندى سيراً تعجب (٢٥)

ومن الصفات المعنوية الأخرى (المجد) في قول الشاعر :

يا من بعين الرضا يُرضي مؤمله والنملُ يطبق أجفاناً عل الغضبِ
لو يكتب المجد أحساب الملوك , اذن أعطاك موضع (بسم الله) في الكتبِ (٢٦)

ويكثر الشاعر في الأفتخار بالملك , ومكانته بين قومه , في قرى الضيف , ومحاربة الأعداء , ضرباً بالسيوف , وكان المأثر الحميدة والسجايا النبيلة اجتمعت عنده٠

واستوحى شاعر المدح اللثام الذي يضعه المقاتلون على وجوههم فرأى فيه جانباً جمالياً وقيمة خلقية يقول :

وتلثموا صوناً لرقة أوجه جعل السماح شعارها ودثارها (٢٧)

ونرى شاعر أخر يمدح الحواس كأن قلبه عين , وكأن جسمه سمع بقوله:

وكان فطنته شهاب ثاقب وكان نقدَ الحسَّ منه يقين (٢٨)

ومما يلاحظ على بعض الابيات الشعرية في الغالب يأتي الفخر ممزوجاً بالمديح كما في قول الشاعر :

ضروبٌ بأطراف السيوف بنانه لعوبٌ بأطراف الكلام المنمقَّ (٢٩)

وسخروا الشعراء شعرهم للوصول الى ابواب الخلفاء والولاة والقواد والحصول على الاموال الكثيرة منهم :

أتتــه الخلافةَ مُنقادةً اليه تجرر أذيالها
ولم تكُ تصلح الا له ولم يكُ يصلحُ الا لها (٣٠)

يعرف كيف يتخير الافكار القريبة الى نفوسهم بعيون القول ,بألفاظ واضحة وسهلة بلا حشو , يعرفه العاقل , ويباشر المعنى مباشرة , ويقصد اليه قصداً , لا يختار لذلك واسطة من صورة أو غيرها ٠

ويقول شاعر أخر :

واللهُ يا خير الخلائق أن لي قلباً مشوقاً لا يرومُ سواكا (٣١)

يمدح الشاعر شخص الرسول (ص) ويضفي عليه صفات مستمدة من شخص المخاطب بقوله (خير الخلائق) ٠وقال شاعر أخر :

من كل معنى يكادُ الميت يفهمه حسناً ويعشقه القرطاس والقلمَ (٣٢)

يعبر فيه عن جمال كتابه وغزارته وسهولته ويستهويه كل طالب علم لأنه منظم مرتب سلس الموضوعات وينشرح بمطالعته كل قلب محزون ويمثل البيت مثالاً للنشاط الثقافي لتأليف الكتاب في عصره٠

ومثله يقول الشاعر :

أضحت يمينك من جودٍ مصورة لا بل يمينك منها صورُ الجود (٣٣)

يبدو المدح واضحاً في البيت فالشاعر يريد ابراز جميع الخصال الطيبة للممدوح من جود وكرم ويرفعه لمنزلة عالية من اجل الحصول على العطايا وربما الممدوح قد يحب مثل هذه النعوت ٠ فالشاعر يثير احساس الممدوح وعطفه من خلال مدحه بالأعمال البطولية ٠

ويمتلك الشعراء طاقة شعرية متدفقه في مواقف المدح يقول ابن المعتز :

يوفقه الله في رأيه ويوحي الصواب الى قلبه (٣٤)

ان الشاعر في البيت لم يتخذ المديح سبيلاً للتكسب وانما نظم فيه وفاء واخلاصاً لاصدقائه ومحبيه , أو مجاملة للخلفاء والولاة .

أنشد ابو تمام بحضرة الكندي قائلاً :

اقدام عمرو , في سماحة حاتمٍ في حلم أحنف , في ذكاء اياسٍ (٣٥)

يتميز الشاعر بسرعة البديهة , ذكر الصولي ذلك بقوله : ((اذا كلمه انسان كان أجابه قبل انقضاء كلامه , كأنه على علم بما يقول فأعد جوابه)) (٣٦) ويعرف ايضاً سريع الاجابة والاقناع , فعرف بذكاء ولباقة , وعندما سمع الكندي , اعترض عليه

وقال : (الأمير فوق من وصفت , شبهت ابن امير المؤمنين , وولي عهد المسلمين بصعاليك العرب , وما هولاء الذين ذكرت وما قدرهم ؟ !) ٠(٣٧)

فأطرق أبو تمام شيئاً , وقال :

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباسِ

فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس (٣٨)

ثم استمر في انشاده حتى أتم القصيدة ولما أخذت من يده لم يجدوا بها البيتين فعجبوا من سرعة فطنته واهتز الأمير طرباً (٣٩) وفي الابيات مقدرة فائقة على التصوير والوصف وأختار لغة جميلة سهلة وتشبيهات رائعة , وهذ يتناسب مع غرض الوصف٠

ونجد شعراً أخر في الوصف كقول الشاعر :

ومطعم الصيد هبال لبغيته ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب (٤٠)

هذا القول في صفة صائد , ولكنهم قد استعملوه فيمن ورث وصف المجد من آبائه ٠وقيل البيت لذي الرمة ولع عبقرية فذة في وصف المرئيات والمعنويات , فيظهر دقة في التصوير وبراعة التشخيص وحسن التعبير ٠

وأنشد ابو الطيب في سيف الدولة قائلاً:

لكل امرىء من دهره ما تعوَّدا وعادة سيف الدولة الطعن في العدا (٤١)

الوقائع والحروب فكان بارعاً في وصفها وتصويرها , مجيداً في نقلها للقارىء , مثل وصف براعة سيف الدولة بالطعن بالأعداء , وقد أنشد هذا البيت وهو مع سيف الدولة على فرسيهما في الميدان ٠ وقد اكتسب المتنبي تجربة طويلة من مشاهدته للناس وتأمله في الأحداث وكانت حصيلة تلك التجربة ثقافة عميقة , تمتلى حكماً بليغة سارت على الألسن كما في الشطر الأول من البيت السابق٠

وتجدر الاشارة الى ان شعر المديح في كتاب احكام صنعة الكلام حوى النعوت التي تقبلها الممدوح أو الوزراء والقادة والولاة واستحسنوها وعدوها جزءاً من مآثرهم , وحبذوا ان تشيع بين الناس , وان تدور في بطون الكتب , والابيات في شكلها ومعانيها لا زالت تهتدى بالموروث القديم ٠وسجل الشعراء انتصارات وأحداث وصفات تلائم الممدوح ٠ونجد المديح النبوي بذكر صفات ومناقب الرسول (ص)

وتمتاز الابيات بسهولة الالفاظ , ووضوح المعاني , الى جانب صور البيان بالبديع في ابراز معانيهم وتجميلها , ومن ينعم النظر في الابيات يجدها موزونه على البحور المعروفة , طويلها وقصيرها الى جانب قوافيها متنوعة ٠

المبحث الثاني : الرثاء

عرف الرثاء منذ عصر ما قبل الاسلام ((اذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون المؤتى كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبنين لهم ومثنين عليهم , وان ذلك هو مصير محتوم)) (٤٢) وفي العصرين الاسلامي والأموي حظي الخلفاء بالرثاء , وبينوا عجز الأنسان أمام الموت ٠

والرثاء من الفنون الشعرية الذي اصبح يشكل ديواناً في الشعر العربي وكان للعباسيين نصيب وافر فيه , وتنوعت موضوعات الرثاء فنجد رثاء الخلفاء والوزراء ورثاء الحيوانات والمدن ورثاء كل شخص عزيز عليهم وكانت مقطوعات شعرية ٠ ويتضمن في شعر الرثاء الدعاء للميت بالسقيا ٠والوقوف على صفاته بعد موته كالشجاعة والبأس والتقوى والكرم وغيرهم ٠

ونرى في كتاب احكام صنعة الكلام ابياتاً في غرض الرثاء ٠ يقول الحمداني :

لا بدَّ من فقد ومن فاقد فاصبر فما في الدهر من خالد
أكن المعزى لا المعزى به ان كان لا بدَّ من الواحد (٤٣)

مسحة الحزن مهيمنة على البيتين , لان الشاعر يحاول ان يشرك المتلقي في فجائع الدهر في الحياة – و لا شك – ان كلمتي (فقد , فاقد) تحقق اقرار الفعل ليكون هادئاً صابراً محتسباً ٠

وبنفس هذا النسج من الصياغة وهذه الدقة في المعاني والصور يعزي ابو الطيب المتنبي سيف الدولة الحمداني قائلاً:

لا يحزن الله الامير فانني لأخذ من حالاته بنصيبِ (٤٤)

يعزي المتنبي سيف الدولة بغلام له , ونقل الثعالبي في كتابه : المتنبي ما له وما عليه ان الصاحب بن عباد قال في هذا البيت : لا أدري لم يحزن سيف الدولة اذا اخذ المتنبي بنصيب من القلق ٠

ومن الشعر الجيد في الرثاء قول الشاعر:

ألا موت يباوع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه
اذا أبصرت قبراً من بعيد وددت لو انني مما يليه (٤٥)

في البيتين صور الشاعر حزنه على نفسه من ضيق العيش وتمنى الموت , بشعر صادق يعبر فيه عن مأساته ٠ ومثله قول الشاعر :

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهرُ فمن شيم الاحرار في مثلها الصبرُ (٤٦)

ومن جميل شعر الرثاء قول المعري :

رُب لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الاضدادِ (٤٧)

يصور الشاعر حقيقة الموت , ويعبر عن القبر ب (ضاحك) وذلك لكثرة الموت وتتابعه, ان اللحد مر عليه اختلاف الأموات ما بين الغني والفقير والصالح والسيء ويدفن به ميت على بقايا ميت أخر ٠ ويكفي ان تقرأ بيتاً واحداً للمعري لتستخرج عديداً من المعاني والأفكار والآراء وهنا تظهر معالم فنه العريق٠ ومن مظاهر قصيدة الرثاء قول الشاعر :

وثقت بربي وفوضت أمري اليه وحسبي به من مُعينِ

فلا تبتئس بصروف الزمان ودعني فان يقيني يقيني (٤٨)

وهنا طريقة انيقة في التجنيس البديع التأسيس , وكان يسميه المتشابه (٤٩) وهذه النظرات التأملية في الدنيا والدهر تولد لدى الفرد – في بعض الاوقات –شعوراً سوداوياً وانقباضاً نفسياً يكرهانه الوجود والناس فيكون معتكفاً للدعاء ليتجنب مخالطة الأخرين ٠

فالدنيا غرور متقلبة لا تبقى على حال ٠ حتى الناس فيها متغيرون يقول الشاعر :

ان دنياك هذه غرة ما لثبات الأنام فيها ثبوت

فاتركها فانها أم دفر لبنيها غرارة خلبوت (٥٠)

والمرء دائماً , فريسة الدهر وتحت مخالب القدر , ومع ذلك تخدعه آماله وتغره فيتناسى هذه الحقيقه , فنراه يجمع الاموال ويكدسها ويحرص على شؤونه الدنيوية غافلاً عن دينه ٠

واشتهر أبو تمام بالرثاء كاشتهاره في المديح قال :

غدا غدوة والحمد نسج ردائه فلم ينصرف الا و أكفانه الأجر (٥١)

انه كان يحسن اظهار الحزن والألم على الشخص المتوفى , فهو قائد ويعده خسارة الامة فيه ويقول مصطفى الشكعة : ((خلق الجو الحزين المتلائم مع طبيعة الكارثة

وظروف المأساة ٠ثم يُلقي بثقله وفكره على بحار المعاني فيصيد نفائسها ويصقلها ويُطرزها ويقدمها لجمهرة الناس أحسن ما تكون صوغاً وأجمل ما تكون ثوباً)) (٥٢) تنوعت موضوعات الرثاء فقد ضمنها الشعراء وصف همومهم والآمهم وقد يودعها حكماً وتأملات تدل على نظر عميق ودقيق منها قول الشاعر :

أعمل لرزقك كل آلة لا تقعدنَّ بكلِّ حالـــــة

وانهض بكلُّ عظيمة فالمرء يعجز لا المحالة (٥٣)

ومثله قول المعري :

أصبـــــح عنـــــي الشبـــاب قد حســـرا (٥٤)

فهو يرثي نفسه , ويرى الشباب ظعن مع الظاعنين ٠ومن ضروب الرثاء في العصر العباسي بكاء المدن التي أصابها الدمار والخراب يقول ابن الرومي :

لهف نفسي عليك يا قبة الاســـ لام لهفاً يطولُ منه غرامي (٥٥)

فهو يعبر عن المأساة التي حلت بمدينة البصرة ويشرح الدمار بالغضب والحزن لهذه الحادثة التي اذهلت عقول الناس ٠

ومن جملة الابيات يرثي الشاعر شخصاً فيقول :

أبا قاسم قد كنت دنيا صحبتها قليلاً , كذا الدنيا قليلُ متاعها (٥٦)

وقال الشاعر :

يا غائباً تبلى محاسنه الله يوليك غفراناً واحسانا

ان كنت جرعت كأس الموت واحدة في كل يوم اذق الموت ألواناً (٥٧)

يرثي الشاعر شخصاً عزيزاً عليه قد مات ويدعو له بالغفران وهو يكابد حزناً شديداً من بعد فراقه وتظهر في الابيات صدق العاطفة والشعور اللذان يرافقان غرض الرثاء منذ القدم ٠

ومثله قول الشاعر:

نوائب دهرٍ ليتني متُ قبلها ولم ارَ عدوان السفيه على الحبرِ

محابرُ تبكي بعدهم بسوادها وبعضُ قلوب الناس احلكُ من حبرِ (٥٨)

رثاء المدن والعلم من الموضوعات المستحدثة نتيجة لما حل في بغداد بعد سقوطها على يد القوات الغازية الوحشية المغول فنهبت دوراً ورميت كتباً في نهر دجلة حتى تغير لونه ٠

بهذا الاسلوب السهل استطاع الشعراء تقديم شعر الرثاء ٠وهناك مراثٍ تبدو غريبة وهي من مستجدات العصر العباسي ٠فكانوا صريحين في تصوير أحاسيسهم ومشاعرهم وصادقين في تعابيرهم , قلما نجد الصنعة والتكلف ٠(٥٩) ويطالعنا مع الرثاء شعر الزهد الذي نظمه الشعراء من اجل الوعظ والارشاد وموجه للناس لعلهم يتخذون العبرة والعظة قبل فوات الأوان واقتراب ساعة الرحيل من دنيا الفناء ٠والشعر على العموم قريب المأخذ في بناء سليم مترابط , ولغة فصيحة , وموسيقى مستساغة ٠ ولم يكن الشعراء غواصين في المعاني ٠

المبحث الثالث : الوصف

الشعراء فنانون بالكلمات يستطيعون ان يصورون ما يرون وفي العصر العباسي كثرة مظاهر الترف , وتعددت مشاهد الجمال , وشاعت في الحياة العباسية ألوان مادية استوعبت انتباه الشعراء, واوحت اليهم بنقلها في لوحات من القريض ٠حظي شعر الوصف باهتمام الدارسين قديماً وحديثاً , وقد اعطتنا الدولة العباسية ألواناً من شعر الوصف (٦٠) فقد وصفت المرأة والرياض وأنوارها , والحدائق وازهارها , والقصور والحصون , والسفن والقوارب , والفرش والأثاث , الى جانب الطعوم اللذيذة من الفواكهة وغيرها , ووسائل اللعب واللهو , والصيد والطرد ووصف

الحروب والأنواء الجوية والخمرة وأدواتها وسقاتها ومجالسها , الى جانب صور باهرة للمعركة والأبطال والجرحى والأسرى والقتلى وشجاعة المقاتلين ٠ حتى قال ابن رشيق القيرواني : ((الشعر الا اقله راجع الى باب الوصف ولا سبيل الى حصره واستقصائه)) (٦١) وهذه الاوصاف بعضها قديمة امتدت لها يد الحضارة بالتطوير وبعضها مبتكرة اوجدتها البيئة الجديدة ٠

ومن وصف الطبيعة قول الشاعر :

ألم تر تفليس الربيع المبكر وما حاك من وشي الرياض المنُشر (٦٢)

يتحدث الشاعر عن الربيع ومجيئه المبكر , وهذا دليل الخصب والخير , وبمجيء الربيع تزينت الرياض بأبهى الألوان لتنوع الزهور المنتشرة , وبقدوم الربيع شد الشتاء امتعته للرحيل بخفيه

حتى لا يشعر الناس برحيله , وكان في رحيله يحاول ((ان يكون كالشخص الخائف الغريب المتنكر حتى لا يعرفه أحد أبدع الشاعر في تشبيهه في البيت الثاني عندما جعل ذهاب الشتاء كذهاب الشخص للقريب المتنكر خيفه من أناس قد أرتكب بحقهم أذى)) (٦٣)

ويقول البحتري واصفاً :

واذا (دجلة) حدث تأوهاً وجرت جدي اللجين المنسبك (٦٤)

فدجلة في أمواجها تنساب كما تنساب الفضة المنصهرة من سبائكها وهي في جريانها لا تنسى أن تمر في ديار أهل الشاعر فتمدها بما تحتاجه من مياه . والتشبيه واضح في ابراز الصورة الحضارية البهيجه لنهر دجلة تسر النظر وتثقف العقل. وكما حاول البحتري وصف المعارك الحربية التي يثني على عزيمة القادة والخلفاء , فأنه أيضاً يستخدم وصف القصور ليظهر من خلالها عظمة أصحابها وما وصلوا له من مستوى حضاري عال.

وقال شاعر اخر واصفاً :

والبحر شيء عجبٌ كله والفوز من لجته أعجب

يرضى اذا السحاب احتجت ويسخط اذا بدا ويكثر اللجب :

كأنما يحسده فضلـــــــــه لأنه الأرفع والأعـــذب (٦٥)

ان حظ وصف الطبيعة كثير في شعر الشعراء , فهذه الأبيات في وصف البحر , فالبحر يهدأ اذا كان الجو صافياً لا سحاب فيه , لكنه يثور ويكثر العجيج اذا تلبد الجو بالغيوم ٠فالشاعر يجعل القارئ يعيش اجواء جميلة مع شعر الوصف ٠

وأنشد شاعر أخر يقول :

يهزُّ أعطافها هزَّ النسيم على شدو الوراشين أعطاف الرياحين (٦٦)

وصف الشاعر مكان فيرى به ربيع , وكل مكان بها ينع مزهر ٠هذا البيت يلاحظ فيه التجديد والابتكار , وهو واضح المعنى ٠

وصف الخمرة قد يقترن بالغزل اذ نرى شاعراً يقول :

كنت أحبُّ النبيذ جداً فصار حُبي النبيذَ بغضا

فلست أرضاهُ لي شراباً والحمدُ لله لست أرضى (٦٧)

وقد مضى الشعراء على سنن معاصريهم من الأكثار من التشبيهات , وذكروا اوصاف الخمرة ومفاتنها وجمال هيئاتها وأثرها في نفوس الشاربين ٠

وأنشد الصنوبري ابياتاً في وصف الربيع :

يا ريم قومي الآن ويحكِ فانظري ما للرُّبى قد أظهرت اعجابا

كانت محاسنُ وجهها محجوبة فالانَ قد كشف الربيع جمالها (٦٨)

الشاعر الصنوبري وصافاً بارعاً , كان مولعاً بالربيع ينتظره بشوق لانه يرضي حاسته البصرية المفتونة باستجلاء الألوان ٠ويرضي أنفه الذي يمتلئ بأريج الربيع ٠

وقال شاعر أخر:

تحالف الدهرَ و الزمان فحيث كان الزمان كانوا

عاداني الدهر نصف يوم فأنكشف الناس لي وبانوا(٦٩)

يظهر من قول الشاعر ان له كثيراً من الاعداء كانوا يصنعون له المكائد , وفي الابيات وصف الشاعر زمانه وخيانة الناس به فتمثلت في ظاهر براق وباطن قبيح

, وفيه اشارة الى هروب المودة والصفاء بين الناس وهو موجوعاً ممالا اصابه٠

كان ابو العلاء له رغبة صادقة في اصلاح المجتمع وقيام حكم عادل مطهر من الظلم والعدوان , يتصرف القائمون على شؤون الناس بعقل راجح وها هو يتسأل ويصف زمانه قائلاً :

متى يقومُ امام يستقيد لنا فتعرف العدلَ أجيالٌ وغيطانٌ ؟ (٧٠)

فهو يتمنى ان تعيش الناس سعداء بعيدين عن الأذى والحسد والحقد والبغضاء٠

ويقول ابن المعتز :

ولما غدت خيلنا للطراد جعلنا الى الدَّير ميعادها (٧١)

يمتلك ابن المعتز طاقة شعرية كبيرة , فهو وصاف بارع استطاع في البيت أن يصف رحلة الصيد والحيوانات والطيور في القنص .

الوصف متعدد الجوانب الى حد بعيد ٠ويمكن للقارئ ان يرى صوراً مختلفة تزينها التشبيهات والاستعارات والكنايات من جهة , والبعض الأخر تزينها وظائف اللغة ٠ان خيال الشاعر حلق في افاق بعيدة , بعد ما شاهد ما صنعته يد الحضارة ,

وما اوجدته من ألوان الترف والنعيم لم تكن معروفة سابقاً ٠ وتلاحظ في شعر الوصف كان الشاعر يرسم لوحة شعرية متحركة , قد تصل احياناً الى حد المبالغة , وتتزاحم الصور فيه ٠وأساليبهم تتراوح بين القوة والجزالة من جهة والسهولة والليونة من جهة أخرى ٠واذا دققنا في وزن الابيات وجدناها لا تخرج عن عروض الخليل الا ما ندر ٠

الخاتمة

١- أرتقت الحياة العقلية والأدبية في العصر العباسي , وسمت جوانبها , واثمرت شجرة غرسها نتاجاً , أغنت المكتبة العربية بتراث كبير .

٢- عنوان الكتاب احكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس , و لم تذكر الطبعة المحققه اسم الكتاب كاملاً٠

٣- الكلاعي من اعلام القرن السادس الهجري ٠

٤- أغفلت المصادر ذكر الولادة والوفاة ٠

٥- اعتمدت منهجية انتقاء الابيات الشعرية غير المدروسة من قبل الباحثين عند الاستشهاد في ثنايا البحث ٠

٦- لا توجد قصائد طويلة في الكتاب وانما مقطوعات قصيرة جدا لا تتجاوز خمس ابيات ٠

٧- الانتاج الشعري الذي نظمه هولاء الشعراء واسع جدا , ومختلف الموضوعات والفنون , ارتأيت أن اختار من تلك الفنون , وتلك الموضوعات ما هو أكثر شيوعاً في الكتاب (المدح , الرثاء , الوصف)

٨- يعد كتاب احكام صنعة الكلام من الكتب المهمة في جانب النثر حتى ان المؤلف في المقدمة يقول : (خصصت كتابي هذا في فن النثر) لكن النثر وفنونه مدروس من قبل الباحثين فطرقت دراسة الشعر فيه٠
٩- قلة الاستشهاد بشعر الغزل٠
١٠- استعان الشعراء بفنون البلاغة استعانة كبيرة فظهر علم البيان والبديع وغيرها من الفنون الجمالية .
١١- كان المؤلف اميناً في نقل الابيات الشعرية بصورة صحيحة دون تغيير مع العلم بعضها مجهولة القائل والبعض الاخر يستشهد بنصف بيت ٠
١٢- كان الشعراء واقعيين في نقل المعانات الحقيقية عبر شعرهم فجاء بعضها تقليدياً وتخلله الجديد
١٣- الابيات الشعرية التي وردت في الكتاب اغلبها لشعراء عباسيين٠
١٤- المدح هو طريقة المتنبي الى الشهرة والمجد , ولهذا نستطيع أن نقول أن المدح فتح لشاعرنا على مصراعيه فجال به كيفما شاء حتى أصبح زعيمه بدون منازع .

فهرست المصادر والمراجع

١- ابو الطيب المتنبي ما له وما عليه : ابو منصور الثعالبي , تحقيق محي الدين عبد الحميد , مطبعة حجازي , القاهرة , (د٠ت)٠
٢- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : نبيل خليل ابو حلتم , دار الثقافة , بيروت , ١٩٨٥م٠
٣- احكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق و الاندلس : محمد عبد الغفور الكلاعي , تحقيق محمد رضوان الداية , دار الثقافة , بيروت , ١٩٦٧م٠
٤- أخبار ابي تمام : ابو بكر الصولي , ط لجنة التأليف والترجمة , القاهرة , ١٩٧٣م٠
٥- الادب العربي في العصر العباسي : ناظم رشيد , جامعة الموصل , كلية الآداب , ١٩٨٧م٠
٦- الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة : د٠ احمد هيكل , جامعة القاهرة , دار المعارف , ١٩٧٩م٠
٧- تاريخ النقد الادبي عند العرب , نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن : احسان عباس , ط٢, دار الثقافة , بيروت , (د٠ ت)٠
٨- تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان , دار الهلال , القاهرة , (د٠ت)٠
٩- التكملة لكتاب الصلة : لابن الابار , مدريد , ١٨٩٠ ٠
١٠- جواهر البلاغة : احمد الهاشمي , تحقيق يوسف الصميلي , بيروت لبنان , ١٩٨٠م٠
١١- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة : ابن بسام , دار الكتب المصرية , ١٩٧٨م٠

١٢-الرثاء : د٠ شوقي ضيف , دار المعارف , القاهرة , ١٩٥٥م٠
١٣-الشعر والشعراء : في العصر العباسي : مصطفى الشكعة , دار الملايين , بيروت , ١٩٧٥م٠
١٤-العصر العباسي الاول : د٠ شوقي ضيف , قم , ط٤, ١٢٣٢٠
١٥-العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده : ابن رشيق القيرواني , تحقيق محي الدين عبد الحميد , السعادة , مصر , ١٩٦٥م٠
١٦-المغرب في حلى المغرب : علي بن سعيد المغربي , تحقيق د٠ شوقي ضيف , دار المعارف , مصر , ١٩٦٤م٠
١٧-مطمح الانفس ومسرح التأنس : الفتح ابن خاقان , مطبعة الجوائب القسطنطينية , ١٣٠٢٠
١٨-نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب : احمد بن محمد المقرى , تحقيق احسان عباس , بيروت , دار صادر , ١٩٦٨م٠
١٩-وفيات الاعيان : ابن خلكان , تحقيق احسان عباس , دار صادر , بيروت ١٩٧٢م٠
٢٠-يتيمة الدهر : ابو منصور الثعالبي , تحقيق محي الدين عبد الحميد , السعادة , القاهرة , ١٩٥٧م٠

فهرست الهوامش

١- الذخيرة : ٢/ ٢٠٢
٢- مطمح الانفس : ٢٩
٣- التكملة لكتاب الصلة لابن الابار : ٢/ ٤٦٨
٤- احكام صنعة الكلام : ٩-١٥
٥- التكملة لكتاب الصلة : ٢/ ٢٦٨
٦- م٠ن : ٢/ ٤٦٩
٧- احكام صنعة الكلام : ٧٨
٨- التكملة :٢/ ٤٦٨
٩- م٠ن: ٢/ ٤٦٩
١٠- المغرب : ١/ ٢٣٨
١١- احكام صنعة الكلام : ١٢
١٢- م٠ن: ١٣
١٣- م٠ن : ١٤
١٤- أحكام صنعة الكلام ك ٣٠٠ و النفح : ٥/ ٩٣
١٥- ينظر: يتيمة الدهر : ١/ ١٢٠
١٦- المغرب : ١/ ٢٣٩
١٧- تنظر : مقالة في النت عن اعلام النثر

١٨- احكام صنعة الكلام : ١٥٦-١٥٧
١٩- م٠ن: ١٨٠
٢٠- م٠ن: ٧
٢١- م٠ن: ٨
٢٢- م ٠ن : ٩ تاريخ آداب اللغة العربية : ٢/ ٤٤٥
٢٣- م٠ن : ٤١
٢٤- م٠ن : ١٥
٢٥- م٠ن: ١٣
٢٦- م٠ن : ٥٦
٢٧- م٠ن: ١٤٣
٢٨- م٠ن: ١٤٥
٢٩- م٠ن: ١٥٥
٣٠- م٠ن:٢٢١
٣١- م٠ن: ١٢٣
٣٢- م٠ن: ١٢٧
٣٣- م٠ن: ٢٢٨
٣٤- م٠ن : ٢٦٥
٣٥- الادب العربي في العصر العباسي :٣٤ الرثاء : ٦٠
٣٦- أخبار ابي تمام : ٧٢
٣٧- احكام صنعة الكلام : ٧٧
٣٨- م٠ن : ٧٨
٣٩- ينظر : المتنبي ما له وما عليه : ٤٣
٤٠- احكام صنعة الكلام :١٦٢
٤١- م٠ن :٢٥٧
٤٢- العصر العباسي الأول : ٣٠٩
٤٣- أحكام صنعة الكلام : ١٨٧ ينظر : تاريخ النقد الأدبي عند العرب , نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن : ٢٧٥
٤٤- احكام صنعة الكلام : ٢٤٩ ينظر : المتنبي ما له وما عليه : ٨٨
٤٥- احكام صنعة الكلام : ٢٤٨
٤٦- م٠ن: ٢٤٢
٤٧- م٠ن ك ٧٦
٤٨- م٠ن : ١٥١
٤٩- جواهر البلاغة : ٣٤٠
٥٠- أحكام صنعة الكلام : ٢٠٧-٢٠٨

٥١- م٠ن: ٢٠٨
٥٢- الشعر والشعراء في العصر العباسي : ٢٧٤
٥٣- أحكام صنعة الكلام : ٢٩٨
٥٤- م٠ن : ٦٥
٥٥- م٠ن: ٨٩
٥٦- م٠ن: ١٨٨
٥٧- م٠ن: ١٥١
٥٨- م٠ن: ١٤٨
٥٩- ينظر : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : ٤٤٢

٦٠- ينظر : الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة : ٢٨٨
٦١- احكام صنعة الكلام : ٤٥
٦٢- العمدة : ٢/ ٢٩٣
٦٣- احكام صنعة الكلام : ١٨٧
٦٤- م٠ن: ٧٢
٦٥- م٠ن : : ١٨٧
٦٦- م٠ن: ١٨٧
٦٧- م٠ن : ١٩٨ ينظر : وفيات الاعيان : ٢: ١٥
٦٨- م٠ن : ١٨٥
٦٩- م٠ن : ١٨٨
٧٠- م٠ن: ١٥١
٧١- م٠ن: ١٦٧